من نجوم الإسلام

(٨)



الشيخ عبد الرحمن الكواكبي

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

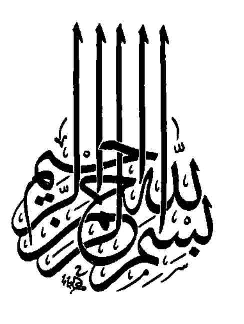
الطّبعَة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

الشيخ عبد الرحمن الكواكبي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

حَدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

كان الأستاذ خالد ــ مدرس التاريخ في ثانوية الكواكبي بحلب ــ معروفاً بآرائه الشجاعة التي كان يبثها في نفوس الطلاب في جرأة يغبطه عليها المخلصون، ويخافها عليه المحبون من تلاميذه وزملائه وأصدقائه.

وكان الأستاذ خالد معجباً بأبطال الأمة العربية والإسلامية، فكان يدرس شخصياتهم وتفاصيل حياتهم، ويتحدث عنهم في اعتزاز وإعجاب ويقول:

ــ يجب أن ندرس حياة هؤلاء الأبطال الميامين، ونتعلم منهم، كما يجب علينا أن نعلّم أبناءنا وتلاميذنا الشيء الكثير عن أولئك الرجال العظام، وأن نحبّبهم بهم، حتى نتمكَّن من زرع روح البطولة في نفوسهم، وننمّي الرجولة في شخصياتهم، ليشبّوا رجالاً عظاماً يعملون على إعادة الأمجاد لأمتهم العربية والإسلامية، ولشعوبهم المقهورة.

وكان الأستاذ خالد من الذين جاهد آباؤهم في سورية أيام حكم

الاستعمار الفرنسي، وسُجن وعُذّب، وبعد استقلال سورية، انضمّ إلى كتائب المجاهدين في فلسطين، وقاتل اليهود على أبواب القدس، وقاتل في (صور باهر) واستشهد هناك، ودُفن في الثرى الفلسطينيّ الحبيب، مع من استشهد من الإخوان المجاهدين هناك.

وكـان الأستـاذ خـالـد، كثيـراً مـا يحـدّثنـا عـن أبيـه الشيـخ محيـي الدين، وعن قائده الشيخ مصطفى، وعن المعارك التي خاضها الشعب السوريُّ ضدَّ المحتلين الفرنسيين، في دمشق وحمص وحماة وحلب، وفي كل قرية وبلدة ومدينة سورية حتى اضطروهم إلى الجلاء عن سورية أذلّاء صاغرين.

وكنّا نصغي لدرس الأستاذ خالد، ونبتهل إلى الله في سرّنا، أن يجعلنا من المجاهدين عندما نكبر، لنكون كأبيه المجاهد، وكقائد أبيه، ومثل سائر أجدادنا المجاهدين.

وكنّا ـ نحن الطلاب ـ نستفزّ الأستاذ خالداً بأسئلتنا، بل لقد أحرجناه ذات يوم، كان يزورنا فيه مفتش مادة التاريخ، أحرجناه بسؤال خارج عن موضوع الدرس، فما بالى الأستاذ بوجود المفتش، وأجابنا على السجيّة، كما كان يجيبنا في كلّ مرّة.

وقف الأستاذ خالد ذات يوم في الصف وقال:

ـ اسمعوا.. يا أبنائي الطلاب ـ وافهموا كل كلمة أقولها لكم، فسوف أحدثكم عن شخصيّة فذّة من أبناء مدينتكم حلب، كان له أثر كبير في تحرير النفوس، تمهيداً لتحرير البلاد من حكم الغرباء والمستعمرين والمستبدين الظالمين.

سأل أحد الطلاب في اهتمام:

ـ ومن يكون هذا البطل الحلبي يا أستاذ؟

فأجابه الأستاذ خالد:

ـ إنه المفكّر العبقري الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، الذي سُمِّيتْ مدرستُكم هذه باسمه، تخليداً لاسمه وآرائه وذكراه.

فسألت الأستاذ:

ـ وهل يمكن أن يكون الشيخ ثائراً؟ فأنا أعرف عدداً من المشايخ يترددون إلى منزلنا، وهم مشايخ صالحون، صادقون، صائمون، مصلّون، عابدون يذكرون الله كثيراً، وعندهم علم غزير، ولكني لم أرَ منهم مجاهداً واحداً.

لم أكن أعرف أنّ كلامي هذا سيثير الأستاذ خالداً، فقد احتدَّ عليّ على غير عادته وقال:

ـ المشايخ هم حملة مشاعل الجهاد عبر العصور.. كلّ المجاهدين كانوا من المشايخ، وأستطيع أن أضرب لك عشرات الأمثلة، بل مئات الأمثلة من المشايخ المجاهدين، وعندنا في سورية، كان من المشايخ المجاهدين: الشيخ بدر الدين الحسني وتلاميذه المشايخ، والشيخ علي الدقر وتلاميذه المشايخ، والشيخ الأعجوبة كامل القصاب وتلاميذه المشايخ، والشيخ عز الدين القسام وإخوانه وتلاميذه المشايخ، والشيخ مصطفى السباعي وإخوانه وتلاميذه المشايخ، والشيخ عيسى البيانوني وإخوانه وتلاميذه المشايخ..

وسكت الأستاذ هنيهة التقط فيها أنفاسه ثم قال:

ـ ولو أردت أن أعدّد لكم المشايخ في سورية ومصر وفلسطين وسواها، لانتهى الوقت ولم أنتهِ من ذكرهم، ولكني أريد أن أحدّثكم اليوم عن الشيخ الكواكبي..

وتابع الأستاذ خالد يقول بعد قليل:

ـ فقد كان الكواكبي كاتباً أديباً، ومصلحاً سياسياً واجتماعياً عظيماً، يحق لأبناء العروبة والإسلام أن يعتزّوا به، ويقرؤوا كتبه بإمعان، ويتشبّعوا بمعاني الحرية التي كان يقدّسها ويعتبرها أعظم نعمة منَّ بها الله على الإنسان، وأن يكونوا أعداء أشداء على الظالمين والمستبدين، سواء أكانوا من العرب والمسلمين أم من الأجانب، وألّا يرضوا بحكم الغريب مهما كانت الظروف والمسوّغات (المبررات) وقد دفع الكواكبي راحته وماله ومستقبله ثم حياته كلّها ثمناً لآرائه الجريئة هذه، فقد تألب عليه الحكام وأذنابهم، والخونة وأتباعهم، فسجنوه وصادروا أمواله، وطاردوه من بلد إلى بلد، حتى تمكّنوا من سمّه، فمات شهيداً مسموماً في مصر، وعمره لا يتجاوز ثمانياً وأربعين سنة فقط... تصوروا يا أبنائي، خلال هذا العمر القصير تمكن الكواكبي من أن يملأ الدنيا ويشغل الناس، بما كان يكتب ويخطب ويدعو إليه من رأي حصيف يدلّ على عقل راجح، وثقافة نادرة، وذكاء قلب، واتّقاد ذهن..

كان الكواكبيُّ ـ يا أبنائي ـ عفيف اللسان، فلا تؤخذ عليه هفوة، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً، حتى لو ألقى عليه

أحدكم السلام، لفكّر في كيفية الإجابة على تحيّتك له، وكان مؤدَّباً في حديثه، متّزناً في خطاباته وكتاباته، مهذَّباً في تعامله مع الناس، وإذا تحدّث غيره، أصغىٰ لحديثه، ولا يقاطعه، وإذا قاطعه أحدهم، سكت وانتظر حتى يتمَّ ذلك الرجل حديثه، ثم يصل ما انقطع من كلامه، وكأنه بهذا التصرّف الحكيم، يريد أن يؤدّب الذي قاطعه في حديثه، ويرشد السامعين إلى التصرف السَّديد مع غير المهذَّبين، وكان نزيهاً عفيفاً لا تمتدُّ يده ولا بصره إلى ما في أيدي الناس، لا يغريه مطمع في منصب أو مال، ولا يرهبه تهديد، بسجن أو طرد من عمل أو تشريد.

وكان الكواكبيُّ شجاعاً، متكبّراً على (الكبراء)، متواضعاً للبائسين والفقراء، يقف دائماً بجانب الضعفاء، وكثيراً ما كان يردّد أمام أهله وصحبه، دعاء النبيّ الكريم ﷺ: اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين.

قال أحد التلاميذ، وكان تلميذاً مبرزاً ذكياً:

ــ لقد حدّثتنا ــ يا سيّدي ــ عن الكواكبي كلاماً عاماً، وقد شوّقتنا لسماع تفاصيل حياته. فهل نطمع منك ــ يا أستاذ ــ في سرد تفصيلات حياة هذا الرجل العظيم؟

ابتسم الأستاذ خالد، لأنه استطاع أن يثير اهتمام تلاميذه بهذه المقدمة، ثم اتخذ هيئة جادة وقال:

ــ أجل يا أبنائي.. لكم ما تطلبون، فاسمعوا وعُوا ما أقوله لكم:

وُلِدَ عبد الرحمن الكواكبي في مدينة حلب، وفي حي (الجَلُّوم الجَوَّاني) عام ١٨٥٤م في أسرة عرفت بالعلم والفضل والأدب والدين. كان جدُّه الشيخ مسعود شاعراً، وكان أبوه الشيخ أحمد بهائي عالماً يدرِّس في الجامع الأموي الكبير بحلب، ويتولَّى إدارة المدرسة الكواكبية التي كان أنشأها على غرار الجامع الأزهر في القاهرة، وكانت حلب ولاية مهمة من ولايات الدولة العثمانية، فكان والي حلب يحمل رتبة وزير أو مشير أو باشا، وكان للولاة صلاحيات مطلقة، وأحكامهم قطعية، وكانوا يأخذون أموال الناس عن طريق الرشوة والهبات والاغتصاب.. بعد أن عمّ الفساد أرجاء البلاد، ولم يعد في إمكان الدولة العثمانية، السيطرة على الفوضى والفساد، لأنّ المحافل الماسونية المنتشرة في سائر المدن والولايات العثمانية، كانت تفعل فعلها الفظيع في الخفاء، دون أن يتنبّه لها السلاطين العثمانيون، وعندما تنبه لخطورتها السلطان عبد الحميد، كان الوقت قد فات، فالإدارات والمؤسسات الحكومية فسدت فساداً مريعاً، والمؤامرت في الداخل والخارج كانت كبيرة ومعقّدة، وأعداء الدولة كانوا كُثُراً، والأقليات كانت أمضى من السكاكين في الكيد للدولة، والتآمر مع الدول الأجنبيّة، ونشر الفساد في الداخل، وبثّ الإشاعات المغرضة الكاذبة، لتخذيل الناس وتيئيسهم من أيّ إصلاح، ومن إمكانية الوقوف في وجه المؤامرات الخارجية..

كانت حلب مدينة العلم والعلماء، وكان فيها أول مطبعة عربية أنشئت في الشرق، فقد أسست في العشر الأول من القرن الثامن

عشر، وكان فيها جرائد ومجلات ومدارس ومعاهد ومكتبات كثيرة.. وفي هذه البيئة الثقافية، يا أبنائي، نشأ الكواكبـي، فأتقن اللغة العربية واللغة التركية واللغة الفارسية، وأخذ العلوم العربية والأدبية والشرعية والتاريخية على أيدي كبار العلماء بحلب، ولكنه لم يكتف بما أخذ عن هؤلاء، بل أكب على القراءة والتحصيل العلمي، حتى إنه ما كان يأنف أن يأخذ العلوم العصرية عن أولاده التلاميذ. وكان يجتمع بأصدقائه العلماء والأدباء والشعراء، ويتداولون في الشؤون الثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، فكان بهذا مثال العالم الساعي إلى خير شعبه وأمته.

كان الكواكبـيُّ ذكيّاً فطناً، وكانت له عينان نفّاذتان بصيرتان، تريان بؤس أبناء الشعب، وفساد الموظفين المرتشين، وإجرام من يتسمَّون برجال الأمن.. تريان الفقر والبؤس والجهل والتعاسة والتخلف والمرض في أوساط الشعب المقهور، كما تريان الموظفين يبتزُّون الناس، والشرطة السّرِّيَّة تقهر وتغتصب وتسرق وتنهب، وليس من يسمع أنين المعذَّبين، سوى المعذَّبين المقهورين أنفسهم، وسوى آذان العلماء المصلحين كالكواكبـي، وهؤلاء من الفئات المستهدفة المسحوقة أيضاً.

سألت الأستاذ خالداً:

ـ هل كان زمن الكواكبـيِّ سيئاً إلى هذه الدرجة؟

فأجاب:

ـ أنا رجل متعلم، وعربـيّ، ومسلم، أحبّ العرب والمسلمين في كل مكان، وأبكي لضياع أمجاد العروبة والإسلام، وأنا حزين جداً

لسقوط دولة الخلافة في استانبول على أيدي اليهود والماسونيين، وعلى رأسهم أتاتورك، ولكن، لا بدّ من أن نعترف، بأن الدولة العثمانية التي حمت الإسلام والمسلمين على مدى أربعة قرون، قد انتشر فيها الفساد، فكثرت الرشى والمحسوبيات، وعمَّ الظلم والظلام، واستشرى الجهل، وصارت الدولة متخلّفة جدّاً. . وفيما كان الأوربّيون يتقدّمون علميّاً وصناعيّاً، كان العثمانيون يسيرون نحو الخلف. . يمشون القهقرى. . وجاء السلطان عبد الحميد والدولة في الدرك الأسفل من الانحطاط والفساد، واستطاع الإمساك بها دون السقوط ثلث قرن من الزمن، ولكنَّ المظالم والفساد والمؤامرات والتخلف كانت أكبر منه، فسقطت الخلافة، وبكى المسلمون، حيث لا يجدي البكاء ولا العويل.

كأنّ الأستاذ خالداً عرف أنّي لم أقتنع، أو أني أطلب المزيد فقال:

ـ كان سلاطين بني عثمان مقاتلين وشجعاناً في ساحات الوغى وميادين المنايا، ولكنّ كثيراً منهم لم يكونوا حكاماً صالحين، ولا ساسة عارفين أسرار السياسة، وألاعيب السياسيين، فكانوا يقعون في المطبّ بعد المطبّ. . كانت عنايتهم بالحروب أكثر من عنايتهم بالشؤون الإدارية وأنظمة الحكم، وكانوا ماهرين في الفتوحات، ولم يكونوا ماهرين في الفتوحات العلمية، والتقدم الحضاري، حتى عمَّت الدولة ـ للأسف الشديد ـ ظلمة حالكة، ومحنة شاملة، وجهلٌ مطبق، وظلم فادح، وفقر مدقع.

سأل التلميذ عادل، وكأنه يريد أن يعيدنا إلى شخص الكواكبي، فقال:

ـ هل كان لأمه دور في تربيته يا أستاذ؟

أجاب الأستاذ خالد:

ـ نسيتُ أن أقول لكم ـ يا أبنائي ـ: إنَّ أمَّه تُوُفِّيَتْ وهو ابن ثلاثِ سنين، فأخذته خالتُه وربَّتْه عندها في أنطاكية، وكانت خالته هذه من نوادر النساء، مشهورةً بأدبها وذوقها ورجاحة عقلها، وكان أبوها مفتياً في أنطاكية، وكان لها أثر عظيم في تربية الطفل عبد الرحمن الكواكبي..

ـ وثقافته؟ كيف حصل على ثقافته يا أستاذ؟

ـ كان للمكتبات العامة والخاصة في حلب، أكبر الأثر في تكوين شخصية الكواكبيّ، خاصة أنَّ أهل حلب يعتقدون أن الكتب تجلب الرزق، فكانوا يستكثرون من اقتناء الكتب، ثم.. ألم تسمعوا بأن (حلب أم الطرب والأدب)؟

وسبق لي أن ذكرتُ لكم قبل قليل، شيئاً عن أبيه الشيخ أحمد بهاء وعن جدّه مسعود، وعن مكانتهما العلمية والأدبية، ولذلك، أستطيع أن أقول:

ـ تعلَّم الكواكبي كما كان يتعلم التلاميذ في ذلك الزمان، وخاصة أبناء المشايخ الذين كانوا يعلّمون أولادهم العلوم العربية

والإسلامية. تعلّم عبد الرحمن في مدرسة أسرته (المدرسة الكواكبية) في حلب، وكانت هذه المدرسة تسير على الطريقة الأزهرية في المواد التي تعلّمها طلابها، وفي طريقة التدريس أيضاً، ولكنه كوّن شخصيته العلمية والثقافية من جدّه واجتهاده، فقد كان يقرأ العلوم الطبيعيّة والرياضيّة، كما أنه كان يقرأ كتب أولاده فيما كان يسمّى بالكتب أو العلوم العصرية، كالفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، وعلم الأحياء، وما إلى ذلك، وكان يسخر ممن يسمّيها علوماً عصرية، وكان يذكّر هؤلاء المشايخ بأن أجدادنا قد برعوا بهذه العلوم قبل الغربيين، فهي علوم عربية وإسلامية.

كما أحضر له أبوه من يعلِّمه اللغتين: التركية والفارسية، فطالع بهما كثيراً من الكتب التاريخية والفلسفية والأدبية، وقوانين الدولة العثمانية.

قال التلميذ عادل:

ــ كنا نظن ــ يا أستاذ ــ أن المطابع والجرائد والمدارس لم تكن موجودة في عصر الكواكبي.

فردّ عليه الأستاذ خالد قائلاً:

ــ قلت لكم: إن أول مطبعة في الشرق كانت في حلب، ثم تلتها عدة مطابع أخرى، ما يزال بعضها موجوداً حتى الآن في حلب، والكواكبيُّ نفسه أسس في حلب جريدتين هما: جريدة الشهباء سنة ١٨٧٧ ثم جريدة الاعتدال سنة ١٨٧٩ وكان قد جلب مطبعة حجرية من إستانبول عام ١٨٧٨ لطباعة جريدتيه، ولكن الحكومة العثمانية

ضبطتها وصادرتها، كما عطَّلتْ له الجريدتين، لأنه كان يدعو فيهما إلى الحرية والثورة على الظلم والظالمين، وكآن فيهما نصيراً للفلاحين، ويدعوهم إلى الثورة على الإقطاعيين، وكان متواضعاً للبائسين والفقراء، وكان متكبراً على الأغنياء والحكام، ويناصر الضعفاء عليهم.

وكان في حلب ـ يا أبنائي ـ جريدة ثالثة، وفي سنة **١٩١١** بلغ عدد الجرائد والمجلات في حلب وحدها تسع عشرة صحيفة.

فهتف التلاميذ في إعجاب:

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

وقال عادل:

ـ إذا كان في حلب وحدها تسع عشرة صحيفة قبل أكثر من ثمانين سنة، فماذا يجب أن يكون فيها الآن، بعد التطور الهائل الذي حدث بعد عصر الكواكبيّ؟

وقلت أنا:

حتماً لم تكن كلُّ تلك الصحف حكومية يا أستاذ.

أجاب الأستاذ خالد:

ـ طبعاً لم تكن حكومية.. كانت تصدر عن العلماء والكتّاب والصحفيين.

وسألتُ الأستاذ من جديد:

ـ ألم يعمل الكواكبيُّ في وظائف الدولة يا أستاذ؟

فأجاب الأستاذ خالد:

ـ بلى يا بنيّ يا صادق.. عمل الكواكبيُّ في عدد من الوظائف الحكومية.. عمل محرراً في صحيفة رسمية، ثم رئيساً لكتّاب المحكمة الشرعيّة، ثم قاضياً شرعيّاً، ثم رئيساً لبلدية حلب، ولكنه لم يكن يحرص على الوظيفة، فانتقل إلى العمل في الصحافة الحرّة تارة، وفي التجارة والمشاريع العمرانية تارات، وكان في كلِّ ما يعمل، مثال العالم الذي يحترم علمه، في النزاهة والاستقامة في التعامل مع الآخرين، وفي صدقه وعفّة يده ولسانه.. إلى جانب حرصه على قضاء حاجات الناس، ولو كان ذلك على حساب راحته وجيبه، وكان يواجه ما قد يعترضه من مشكلات بشجاعة، لأنه كان يحبّ الحق، ويحرص عليه، وكان يضحّي من أجل الفضيلة والمبدأ.

وطلب التلميذ عادل الذي كان ينافسني على الدرجة الأولى في الصف ـ طلب من الأستاذ خالد أن يذكر لنا شيئاً من كلمات الكواكبيِّ، فقال الأستاذ خالد:

ـ لا بأس.. يجب أن أذكر لكم بعض ما كتب، وإلاَّ، فإنّ الفائدة تكون ضحلة، قليلة..

وسكت الأستاذ هنيهة ثم قال:

ـ شدّد الكواكبي على عامل الاستبداد السياسي، وحكم الفرد، وغياب الشورى، باعتباره السبب الأول الذي أدّى إلى

الانحراف عن تعاليم الإسلام.. هذا الانحراف الذي أدّىٰ إلى حالة التخلف والضعف والوهن. فالاستبداد ابتعاد عن الشرع والدين.

وفتح الأستاذ خالد كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، وصار يقرأ:

ـ المستبدون يخافون من علم الناس معنى كلمة (لا إله إلاَّ الله) واعتبروها شتماً لهم، وما زالوا أنصار الشرك وأعداء العلم.. وعندي أنَّ الإسلام بجعله (لا إله إلاَّ الله) محور الدين، تتكرر في كلِّ أذان، وفي كل مناسبة، كان كفيلاً أن يذكّر النفوس دائماً بأنّ العزَّة لله وحدَه، وأن النفوس لا يصح أنْ تذِلَّ لأحدٍ سواه، وأنَّ هذه الكلمة توحي بالضعف أمام الله، وبالقوة أمام من سواه. ولكن.. بتوالي القرون، ودخول الدخيل من العقائد، أصبحت (لا إله إلا الله) عند أكثر المسلمين، كلمة جوفاء لا روح فيها، تبعث الضعف ولا تبعث القوة، وتبيح أن يُشرَكَ مع الله الحاكم المستبد، والرئيس المستبد، بل المال والجاه والمنصب.. فكلُّ هذه وأمثالها، أصبحت آلهة مع الله، وفُقِدَ المدلول الحق لـ (لا إله إلاَّ الله).

وقلتُ أنا العبدَ الفقيرَ إلى الله تعالى:

ـ وجريدتاه؟ ألا تذكر لنا شيئاً مما كان يكتبه الكواكبي في جريدتيه يا أستاذ؟

قال الأستاذ خالد:

ـ كما تحبّ يا صادق، كما تحبّون يا أبنائي الطلبة..

لقد ندّد الكواكبيُّ في افتتاحية العدد الأول من جريدته (الشهباء) بتصرفات الحكومة، وفضح سوءات الموظفين، وبيّن ما تحتاج إليه الأمة من إصلاحات يتغافل الحكام عن القيام بها، من نشر الأخلاق الفاضلة، والتمسك بأهداب الدين الحنيف، وتوسيع دائرة المعارف، بنشر الأبحاث العلميّة التي سبقنا بها الأوربيون، والأبحاث السياسيّة التي توعّي الشعب، ليعرف الشعب حقوقه وواجباته.. الأمر الذي جعل الحكام يضيقون به وبآرائه التحريضيّة ــ حسب مزاعمهم ــ وصاروا يضايقونه، فعطّلوا له جريدة الشهباء. فأغلقوها وصادروها مع مطبعته الحجرية..

ــ وهل سكت الكواكبيُّ يا أستاذ؟

ــ ماذا يستطيع أن يعمل، سوى أن يقرّر الهجرة من حلب؟

ــ إلى أين هاجر؟

ــ إلى مصر. قرّر الكواكبيُّ مغادرة حلب إلى مصر، هرباً من رقابة والي حلب، وجلاوزته، على قلمه الجريء الحرّ، الذي كان يندّد بتسلط الحكام واستبدادهم، واستبعادهم للشورى، ممّا كان سبباً رئيساً من أسباب الانحطاط والتخلف، وإنما كان استبدادهم نتيجة طبيعية ومنطقية لابتعادهم عن تطبيق تعاليم الإسلام الداعية إلى الشورى، بل الآمرة رسولَ الله ﷺ بها، حيث يقول الله تعالى آمراً نبيَّه الكريم مرة: ﴿وشاورْهم في الأمر﴾. وشاورهم: فعل أمر كما تعرفون. كما أنَّ الله تعالى وصف مجتمع المسلمين بأنه مجتمع شوريٌّ لا استبداد فيه، ولا استعباد لأحد، فقال سبحانه: ﴿وأمرهم شورى

بينهم﴾ حتى في القصص، ذكر الشورى على لسان السيدة بلقيس التي قالت لقومها: «ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون» تعليماً لنا نحن المسلمين، بما ينبغي لنا أن نكون.. أن نكون أحراراً، ولسنا عبيداً إلاَّ لله الواحد القهار، ومدلول (لا إله إلاَّ الله) هو هذا المدلول، وهذا ما فهمه أجدادنا من الرعيل الأول، فكانوا أساتذة الدنيا في تعليم الحرية، وإلاَّ.. فمتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

سأل التلميذ أحمد أستاذه قائلاً:

ـ ولماذا إلى مصر يا أستاذ؟ ألم تكن مصر تابعة للدولة العثمانية؟

فأجاب الأستاذ خالد في حزن:

ـ كانت مصر ـ يا أحمد ـ بعيدة عن التسلط التركي، وكانت قد بدأت فيها نهضة أدبية وفكرية وسياسية وفنية، فهاجر إليها كثيرون من أحرار العرب، وأسسوا فيها المطابع والجرائد والمسارح، وكان قد ظهر فيها مفكّرون عباقرة من أمثال الشيخ جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، وغيرهم وغيرهم، ولكنها ـ للأسف ـ كانت واقعة تحت سيطرة الاستعمار الإنكليزي.

قال أحمد:

ـ وهل كان الكواكبي عدواً للأتراك وصديقاً للإنكليز يا أستاذ؟

فأجاب الأستاذ خالد في جدية واهتمام:

ـ لا ـ يا أحمد ـ الكواكبي ما كان يحارب الأتراك لأنهم

أتراك، وإنما كان يحارب الاستبداد السياسي لدى الأتراك، وتسلطهم على العرب والمسلمين، وتخلفهم، ووقوفهم في وجه الأفكار الحرة. وأستطيع أن أقول لكم: إن الكواكبي قد تألم من زحف الاستعمار الأوروبي على الشرق للاستيلاء على تركة (الرجل المريض) ـ وهذا هو الاسم أو الوصف الذي كان يطلقه الأوروبيون على الدولة العثمانية ـ ولذلك كان يهاجم المستعمرين والحكام الغرباء، وكان يستثير الهمم، لتقف الشعوب العربية والإسلامية ضدّهم، ولتطردهم من بلادها، لأنهم حكام غرباء، وظُلَّام ومتسلطون مستعمرون، ولأنهم يحملون صلبانهم في قلوبهم وعقولهم، فتظهر تلك الصلبان في سلوكهم وتصرّفاتهم..

كان الكواكبيُّ، يا أبنائي، من أعرف الناس بالإنكليز والفرنسيين والروس والطليان والأمريكان، وكان يعرف أطماعهم ومؤامراتهم، وكان يرى أن الدولة العثمانية لا تستطيع أن تقف في وجوههم وأمام أطماعهم، إلاَّ بالإصلاح الداخلي.

وفي مصر ـ يا أبنائي ـ اتصل الكواكبي بالأدباء والمفكرين والسياسيين والصحفيين، وراح يكتب في الصحف بتوقيع مستعار، كان يوقّع باسم (الرحالة): (ك) إشارة إلى الحياة المضطربة غير المستقرة التي كان يعيشها، فقد كان الكواكبي كثير الأسفار والتنقل في الدول الآسيوية وفي الدول الأفريقية، كما كان يخفي اسمه كيلا يتعرض هو وأهله لانتقام الحكام الظالمين في حلب وفي مصر. ومن هذه المقالات كان كتابه الرائع: (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)

الذي دعا فيه إلى الحرية بجرأة وشجاعة نادرتين، فقد استعمل فيه ذكاءه، وصبّ فيه تجاربه واطلاعه الواسع على أحوال الشعوب المقهورة، ونقد فيه الحكومات الإسلامية... وهذه الموضوعات كانت محرمة على الكتاب والمفكرين، ولا يجرؤ على الكتابة فيها إلاَّ من كان مثل الكواكبي إيماناً وشجاعة وثقافة وقوة حجة. وقد بيّن سبب تأليفه هذا الكتاب فقال:

ـ «أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين، عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسبّبون لما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار (أي أحداث الدهر المتغيرة) ولا على الأقدار».

إن الكواكبي ـ يا أبنائي ـ كان يرى أن الاستبداد مفسد للأخلاق، ومفسد للتربية، وعدو لدود للعلم والعلماء، لذلك كان يدعو أبناء الأمة إلى العلم وإلى التخصص في العلوم العملية، ليلحقوا بركب الحضارة، كما كان يرفع شعار الإصلاح والتطهير في مجال العقائد الدينية، لأن الإسلام بريء من كل ما ينسب إليه من تواكل وعادات فاسدة وخرافات مضللة، كما يرى أن تعاليم الإسلام، إذا تمسك بها الناس، فإنها سوف تميت الاستبداد، وتحمي العدل، ومن أجل أن يتحقق هذا، لا بدَّ من حرية البحث والبحث العلمي الموضوعيّ الدقيق.. السليم..

وكانت هناك خرافة تقول: إن الأمة تحتاج إلى المستبد العادل، فتصدّى لهذه الخرافة وقال: ليس هناك مستبد عادل، فالاستبداد ضدّ العدل، والمستبد يعشق الخيانة، ولذلك يخون الحكام المستبدون.

قلت للأستاذ خالد:

ـ نريد المزيد من كلمات الكواكبـيّ يا أستاذ.. نريد أن ترضي نهمنا إلى الحرية في هذا الزمن..

فأشار إليَّ الأستاذ بيده: أن اسكت، وقال:

ـ سنترك الكواكبـي يتحدث، فهو صاحب المدرسة الكواكبيّة في التفكير المتّزن الأصيل، ولا تبعة علينا فيما ننقل أو نقرأ من أفكاره وكلماته المقاتلة..

وفتح الأستاذ الكتاب وقرأ:

ـ والحكومات ميّالة بطبعها إلى الاستبداد، لا يصدّها عنه إلاَّ وضعُها تحت المراقبة الشديدة، ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها، وإلاَّ قوّةُ الرأي العام، وعظمة سلطانه.

والمستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع كَعْبَ رجله على أفواه الملايين من الناس، يسدّها عن النطق بالحقّ، ومطالبتها به.

والمستبدّ عدوّ الحقّ، وعدوّ الحرّيّة وقاتلها.

والمستبد يودّ أن تكون رعيته بقراً تُحلب، وكلاباً تتذلل وتتملق، وعلى الرعية أن تدرك ذلك، فتعرف مقامها منه: هل خُلقت خادمة له، أو هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها؟

والرعية العاقلة مستعدّة أن تقف في وجه الظالم المستبد، تقول

له: لا أريد الشر، ثم هي مستعدّة لأن تتبع القول بالعمل، فإنّ الظالم إذا رأى المظلوم قوياً، لم يجرؤ على ظلمه.

مفهـوم؟

فصرخنا بصوت واحد: مفهوم.. فتابع قراءته:

ــ والمستبدون السياسيون يسترهبون الناس بالتعالي والتعاظم، ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال، حتى لا يجدوا ملجأ إلاَّ التزلّف لهم، وتملُّقهم!.. وعوامّ الناس يختلط عليهم في أذهانهم، الإله المعبود، والمستبدون من الحكام، فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم، وينزّهونهم عن سؤالهم عما يفعلون، ولا يرون لهم حقاً في مراقبة أعمالهم، كما أنه ليس لهم حقٌّ في مراقبة الله ــ سبحانه ــ فيما يفعل. ولهذا خلعوا على المستبدّ صفات الله، كوليّ النعم، والعظيم الشأن، والجليل القدر، وما إلى ذلك.

والحاكم المستبد لا يخشى علوم اللغة والأدب، وإنما ترتعد فرائصه من الفلسفة العقلية، ودراسة حقوق الأمم، وعلوم السياسة والاجتماع، والتاريخ، والتاريخ المفصّل، والقدرة على الخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تنير الدنيا، وتثير النفوس على الظالم، وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان؟ وما هي حقوقه؟ وكيف يطلبهـا؟ وكيـف ينـالهـا؟ وكيـف يحفظهـا؟ فـإنّ المستبـدَّ سـارق، والعلماء من هذا القبيل يكشفون السرقة. ولذلك يكون الحاكم المستبد وهؤلاء العلماء في صراع دائم.. العلماء يحاولون الإنارة، والمستبدّ يحاول إطفاءها، وكلاهما يحاول كسب عامّة الشعب،

فالمستبدّ يخيفهم ليستسلموا، وهؤلاء العلماء ينيرونهم ليقولوا ويفعلوا.

والحاكم المستبدّ تسرُّه غفلةُ الشعب، لأنه يتمكن بغفلتهم من الصولة عليهم: يغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء حياتهم، ويضرب بعضهم ببعض، فيصفونه بحسن السياسة والكياسة، ويُسْرف في أموالهم، فيقولون: إنه كريم، ويقتلهم ولا يمثّل بهم، فيقولون: إنه رحيم، وإن نقم عليه بعضُ الأباة، قاتلهم بهم كأنهم بغاة.

ورفع الأستاذ رأسه، ونظر إلينا تلميذاً تلميذاً، ثم سأل سؤاله المعتاد:

ـ مفهوم؟

فأجبناه جوابنا المعتاد، ولكنْ في حماسة وصياح:

ـ مفهوم.

فتابع قراءته:

ـ والحاكم المستبد يخاف رعيَّتَه كما تخافه رعيَّتُه، بل خوفُه منهم أشدّ، لأنه يخافهم عن علم، وهم يخافونه عن جهل.

وعلى الجملة، فأخوف ما يخافه المستبدّ من العلم، العلم الذي يعلّم أنّ الحرية أفضل من الحياة، وأنّ الشرف أعزُّ من المنصب والمال، والذي يعلّم الحقوقَ وكيف تُحفظ؟ والظلمَ وكيف يُرفَع؟ ويعلّم الإنسانيّةَ وقيمتَها، والعبوديّة وضررها.

وقال الأستاذ خالد:

ـ وعاب الكواكبيُّ على ابن خلدون رأيَهُ في تقديم الحرص على الحياة، على التضحية في سبيل الحرية والمبدأ، وذلك عندما نقدَ ابنُ خلدون الإمامَ الحسين بن عليّ رضي الله عنهما، وأمثال الحسين، وقال: إنهم يعرّضون أنفسهم للموت، بخروجهم في فئة قليلة، على الخليفة ذي السلطان والعَدَدِ والعُدَد، فيُلْقون بأنفسهم إلى التهلكة، فقال الكواكبي:

إنهم معذورون، لأنهم يفضّلون الموتَ كراماً، على حياة الذلّ التي كان يحياها ابن خلدون، وهم في ذلك ككرام السباع والطير التي تأبى التناسل في أقفاص الأسر، وتحاول الانتحار تخلصاً من قيود الذلّ.

وقال الأستاذ خالد:

ـ اسمعوا ما كتبه الكواكبيُّ رحمه الله، عن الحكومات المستبدّة.. كتب يقول:

ـ والحكومة المستبدّة يظهر استبدادها في سائر فروعها، من المستبدّ الأعظم، إلى الشرطيّ إلى الفرَّاش، إلى كنّاس الشارع، ولا يكون كلُّ صنف من هؤلاء إلاَّ من أسفل طبقته، لأنه لا يهمهم المجد باستجلاب محبّة الناس، إنّما يهمُّهم التمجُّدُ باكتساب ثقة رئيسهم المستبد. والوزير في الحكومة الاستبدادية، وزير المستبد الأعظم، لا وزير الأمّة، وكذلك مَنْ تَحْتَه من أعوانه، فالهيأة كلُّها تتمجَّد ولا تمجُد، وكلُّهم شركاء في جريمة الضغط على الأمة وظلمها..

والحكومة المستبدّة تقتل في النفوس العزة الحقيقية، بالمفاخرة بالأعمال النافعة، وتخلق نوعاً من السيادة الكاذبة، وتجعل أولي الأمر سلسلة تبدأ من المستبدّ الأعظم، إلى الشرطيّ في الشارع، كلٌّ يخنع لمن فوقه، ويستبدّ بمن تحته.

والحكومات المستبدّة تيسّر للسِّفْلة طرق الغنىٰ بالسرقة، والتعدّي على الحقوق العامة. ويكفي أحدهم أن يتصل بباب أحد المستبدّين، ويتقرب من أعتابه، ويتوسل إلى ذلك بالتملّق، وشهادة الزور، وخدمة الشهوات، والتجسس، ليسهل له الحصول على الثروة الطائلة من دم الشعب.

والاستبداد يلعب بالأخلاق، فيجعل من الفضائل رذائل، ومن الرذائل فضائل؛ فيسمّي النصح فضولاً، والشهامة تجبراً، والحميّة طيشاً، والإنسانيّة حمقاً، والرحمة مرضاً، كما يسمّي النفاق سياسة، والتحايل كياسة، والدناءة لطفاً، والنذالة دماثة وظرفاً.

والاستبداد يفقد الثبات في الخلق، فقد يكون الرجل شجاعاً كريماً، فيصبح بعوامل الاستبداد جباناً بخيلاً، ولا أخلاق ما لم تكن ثابتة مطّردة.

وأقلُّ ما يؤثر الاستبداد في أخلاق الناس، أنه يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق، ويعين الأشرار منهم على فجورهم، آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة، لأنَّ أكثر أعمالهم تظلُّ مستورة، لا يجرؤ الناس على قول الحقّ أمامهم، خوف العقبىٰ.

والاستبداد يفقد الناس ثقة بعضهم ببعض، ويحلّ الخوف محلّ الثقة، فيقلّ التعاون بين الأفراد والتعاون حياة الأمم.

ورفع الأستاذ خالد رأسه، وسأل:

ـ مفهوم؟!

ـ مفهوم!

ـ هل تريدون المزيد؟

ـ نعم أستاذ..

قلّب الأستاذ خالد بضع صفحات من كتاب (طبائع الاستبداد) ثم وقف عند صفحة وقرأ:

ـ في الحكومات التي نجت من الاستبداد، أُطلقت حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات، ورُئيَ أنَّ الفوضى في ذلك خير من تحديد الحرّيّة، لأنه متى وُضعت القيود، نَفَذَ منها الحكام، وتوسَّعوا فيها، حتى يجعلوا الشعرة من التقييد، سلسلة من حديد يخنقون بها الحريَّة.

وقال الكواكبيُّ:

ـ في الحكومة العادلة، يعيش الإنسان حرّاً نشيطاً، يسُرُّه النجاح، ولا تُقْبِضُه الخيبة، وفي الحكومة المستبدّة، يعيش خاملاً خامداً، ضائع القصد حائراً.. وعلى الجملة، فالتربية الصحيحة لا تمكن في ظلّ الاستبداد.

ثم إنَّ الاستبداد كالعلق، يمتصُّ دم الأمّة، فلا ينفكُّ عنها حتى تموت، ويموت هو بموتها.. والاستبداد يجعل الأمّة منحطّة في الإحساس، منحطّة في الإدراك، منحطّة في الأخلاق، وهو يضغط عليها، فتكون كدودةٍ تحت صخرة، والمشفقون عليها يجب أن يسعوا في رفع الصخرة، ولو حَتّاً بالأظافر ذرّةً بعد ذرّة!!.

وقال الأستاذ خالد الذي كان يقرأ حيناً، وحيناً يفسّر أو يعلّق أو يلخّص:

ـ اسمعوا هذه الكلمات النيّرات للكواكبيّ رحمه الله رحمة واسعة:

«إنَّ الرقيَّ الذي ننشده في ظلّ العدل، هو أن يكون الشخص أميناً على جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن المحافظة عليه، أميناً على ملذّاته الجسمية والفكرية، باعتناء الحكومة، بإيجاد أسبابها، أميناً على حرّيته، فلا يُعتدى عليها، أميناً على نفوذه، كأنه سلطان عزيز، فلا يُمانَعُ في تنفيذ مقاصده النافعة، أميناً على ماله وشرفه، وما منحه الله من مزايا، فما لم تتحقق هذه، فالحكومة مستبدَّة، وليست بيئة صالحة لترقّي شعبها».

واسمعوا هتاف الكواكبي بكم، بنا، بأبناء أمتنا جميعاً، وعلى مدى الزمان.. اسمعوا هذه الكلمات المقاتلة:

«يا قوم!. ما هذا التفاوت بين أفرادكم، وقد خلقكم ربُّكم أكْفَاء (أي متماثلين متساوين) أكْفَاءَ في البنية، أكْفَاء في القوة، أكفاء في

الطبيعة، أكفاء في الحاجات، لا يَفْضُل بعضُكم بعضاً إلاَّ بالفضيلة، ولا ربوبيَّة بينكم ولا عبوديّة، واللّهِ ليس بين صغيركم وكبيركم غير بَرْزَخٍ (أي حاجز) من الوهم».

«متى تستقيم قاماتكم؟ وترتفع من الأرض إلى السماء أنظاركم؟ وتميل إلى التعالي نفوسكم؟ فيستقلّ كلُّ إنسان منكم بذاته، ويملك إرادته واختياره؟».

كنت قد رفعت يدي عدة مرات، لأطلب الإذن بالكلام، ولكن حماسة الأستاذ خالد، واندفاعه في إسماعنا أكبر قدر من كلمات الكواكبي، وارتفاع صوته أثناء القراءة، وانشغال عينيه بالقراءة، قد حال كلُّ ذلك دون رؤية يدي، حتى حَسِبْتُني مضطراً إلى مقاطعته، كما يفعل غيري من الزملاء، ولكنني صبرت، حتى رآني وأذن لي بالكلام، فقلت:

ـ شكراً لك ولأستاذك الكواكبيّ يا أستاذ، على هذه النصوص التي عرّى بها الاستبداد والحكومات المستبدّة، ولكن. كيف الخلاص؟ ما العمل؟

فأشرق وجه الأستاذ خالد لهذا السؤال، ثم نظر في ساعته وقال

ـ كنت أريد أن أحدّثكم عن كتابه الآخر، عن (أمّ القرى) ولكن. ما دمت قد أثرت هذا الموضوع، وسألت هذا السؤال، فسوف أجيبك، وأرجيء الكلام عن كتابه (أمّ القرى) إلى درس آخر إن شاء الله.

فقال صديقي وزميلي وغريمي عادل:

ــ نستطيع البقاء هنا أثناء الفرصة يا أستاذ، فقد شوَّقتَنا وحبّبتَنا بهذا الرجل الرائع.

وسأل أحمد:

ــ هل للكواكبي كتب أخرى يا أستاذ؟

أجاب الأستاذ خالد:

ــ المعروف أنّ للكواكبي خمسة كتب، غير الكتب التي صودرت وأُعدمتْ قبل أن ترى النور.

ــ هل تذكرها لنا يا أستاذ؟

ــ تكرم يا أحمد.

الكتاب الأول: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

ــ هذا نعرفه.

ــ ونعرف أنك ستحدّثنا بعد قليل، إن شاء الله، عن كتابه الآخر: «أمّ القرى».

قال الأستاذ خالد وهو يبتسم في حلاوة:

ــ والكتاب الثالث: صحائف قريش.

ــ والرابع؟

ــ والرابع: العزّة والعظمة لله.

ـ والخامس؟

ـ الخامس يا أحمد: مذكرات عن رحلاته.

فقلت في غيرة وحدّة:

ـ والجواب على سؤالي يا أستاذ؟

قال الأستاذ خالد:

ـ يرى الكواكبيُّ أنّ الاستبداد لا يقاوم بالقوة، إنما يقاوم باللين وبالتدريج ببثّ الشعور بالظلم، وهذا يكون بالتعليم والتحميس، لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات: كقوة الجند، وقوة المال، وقوة رجال الدين، من علماء السلطان أو علماء الشيطان، وقوة رجال الأمن، أو رجال القمع، وقوة الأغنياء والتجار الذين يسيرون في ركابه، ما دامت مصالحهم التجارية المادية متعلقة بحكمه، فإذا قوبل بالقوة، كانت فتنة تحصد الناس، وإنما الواجب المقاومة بالحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة.. والاستبداد، مع اعتماده على هذه القوات كلّها، يضعُف أمام الوسائل المحكمة في قلبه، كما قيل: كم من جبار عنيد، جَدَّله (أي صرعه) مظلوم صغير.

ويجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ما يحلّ محلّه، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة. ومتى وضحت الغاية المرسومة، وجَبَ السعيُّ في إقناع الناس بها، واستجلاب رضاهم عنها، وحملهم على النداء بها، ويجب أن ينشر ذلك في كل الطبقات، حتى يصبح عقيدة،

فيتلهّفوا جميعاً على نيل الحرية، وتحقيق المثَلِ الذي يَنْشُدونه.. عندئذ، لا يسع المستبدّ إلاَّ الإجابة طوعاً أو كرهاً.

ثم نظر إليّ الأستاذ خالد، وسألني:

ــ هل تريد المزيد يا صادق؟

فقلت وأنا في منتهى السعادة:

ــ شكراً لك يا أستاذ على هذا الدرس الرائع، الذي أرجو أن يتكرر، حتى لا يكون مثل بيضة الديك كما يقولون.

فابتسم الأستاذ خالد وهو يقول:

ــ دعونا الآن من بيضة الديك، واتركوني أكمل لكم ما قطع زميلكم صادق من سلسلة أفكاري حول كتاب (طبائع الاستبداد).

وسمع الأستاذ قرع الجرس، فنظر في ساعته، ثم قال:

ــ وكان الكواكبي ــ ياأبنائي ــ عدواً للجمود، وداعياً إلى التطور والتجديد في كل شيء، اسمعوه يقول:

«إن الخَوَرَ (أي الضعف) علَّةٌ مُعْدِيَةٌ تَسْرِي من الشيوخ إلى الشباب، ومن الطبقة العليا إلى العامّة، وليت الشيوخ والكبراء يرضَوْن بما كتبه الله عليهم من الذِّلَّة، والمسكنة، والخمول، وسقوط الهمة، والدناءة، والاستسلام، فيتركوا أهل النشأة الجديدة (أي الشباب) وشأنَهم».

وهو ــ بهذا يا أبنائي ــ يدعو الأدباء والمفكّرين إلى الثورة على هؤلاء الجامدين الذين لم يحسُّوا بما طرأ على الحياة والأحياء

من تطوّر عبر القرون، وأنّهم قد خُلقوا لزمان غير تلك الأزمنة.

فسألتُ الأستاذ خالداً:

ـ هل هذا يعني أنّ الكواكبي كان يدعو إلى تطوير الدين أيضاً؟

فابتسم الأستاذ خالد وقال:

ـ من يجرؤ على هذا الكلام يا صادق؟

الدين ثابت في عقائده وعباداته وأخلاقه.. الكواكبي وغيره من المصلحين المجدّدين، يدعون إلى تطوير أساليب الدعوة إلى الله، بما يتناسب وطبيعة العصر الذي يعيشون فيه.. يدعون إلى تجديد الفكر، فالإمام الشافعي رحمه الله، له مذهبان في الفقه، المذهب القديم الذي ارتآه في مطلع حياته العلمية، والمذهب الجديد الذي ارتآه بعد أن توسعت آفاقه الفكرية، وتعمّق في علوم الشريعة وغاص في بحارها اللجيّة.

وعاد الأستاذ خالد إلى النظر في ساعته، ثم قال:

ـ وبهذا نكون قد انتهينا من الحديث عن كتاب «طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد» أرجو أن تكونوا قد استوعبتم ما تحدّثتُ به عنه، فهو كتاب رائع، رائع، رائع، وهو كتاب مهمٌّ جدّاً، خاصةً في هذا العصر الذي هو امتداد طبيعي لعصر الكواكبيِّ، مع أنه مرَّ على كتابته أكثر من تسعين سنة، ممّا يدلّ على أنَّ الكواكبيَّ كان سابقاً عصره بقرن من الزمان على أقل تقدير.

ـ والكتاب الآخر الذي تريد أن تحدّثنا عنه يا أستاذ؟

ـ اسم الكتاب الثاني «أمّ القرى» وقد بحث في هذا الكتاب العديد من المشكلات الشعبية، وأدواء (جمع داء) الشعوب، وترك التركيز على أنظمة الحكم واستبداد الحكام إلى كتابه الأول الذي حدثتكم عنه، وقد نقد في هذا الكتاب الشعوب الإسلامية، وأراد أن يُفهم الشعوبَ حقوقَها، والواجبات المترتبة عليها، وقد اتَّبَعَ فيه أسلوب المحاورات، فتخيَّلَ جمعية سرّيّة عقدت مؤتمراً لها في (أمّ القرى) أي في مكة المكرمة، وضمّ هذا المؤتمر ثلاثة وعشرين مفكراً، يمثّلون مُخْتَلِفَ الدول والأقليات الإسلامية في العالم، وناقش المؤتمرون داء الأمة الإسلامية وسبب تخلفها، فوجدوا أنَّ (الركود) هو الداء، وهو سبب التخلف والضياع، ثم بحثوا علاج هذا الداء، فوجدوه في تسليم قيادة الأمة الإسلامية إلى العرب.. يعني ـ يا أبنائي ـ أنَّ هذا الكتاب هو عبارة عن محاضر الجلسات لذلك المؤتمر.

وهذا الكتاب ـ يا أبنائي ـ يدل على كبر عقل الكواكبي، وعلى قوة تفكيره، وسعة اطّلاعه، وصدق غَيْرَتِه على العالم الإسلامي، وثقته بالعرب وبقيادتهم التاريخية، وبوجوب إسناد قيادة الأمة الإسلامية إليهم، لتنهض الأمة من كبوتها وتخلّفها..

ثم سأل الأستاذ خالد:

ـ هل يكفيكم هذا التلخيص لأمِّ القرى؟

فسارعتُ إلى الردّ:

ـ لا يا أستاذ.. نريد التفصيل في هذا الكتاب، كما فصّلتَ في كتاب طبائع الاستبداد إذا سمحتَ وتكرمت.

قال الأستاذ خالد:

ـ هذا لأن كتاب طبائع الاستبداد يمثّل دعوته الجريئة إلى الحرية، استعمل فيه الكواكبـيُّ ذكاءه النافذ، واطلاعه الواسع على فنون السياسة وشؤونها وأمورها، ومَنْ ألَّف فيها وكتب منذ العصور القديمة، حتى يوم كتابته.

فسأل عادل:

ـ وأمُّ القرى يا أستاذ؟

فأجاب الأستاذ خالد:

ـ (أمُّ القرى) يا عادل، رواية جدّية، ليس فيها غرام وانتقام، ولا أفكار وعواطف هابطة، بل فيها عشق المؤلف للعالم الإسلاميّ، يعاني في سبيله ما يعاني المحب الهائم، ويضحّي في سبيل نهوضه بماله ووقته وراحته وحياته، لأنّ الكواكبي وهب نفسه لإصلاح المسلمين، فدرس التاريخ الإسلاميّ في دقّة وإمعان، تعرَّف على أحواله، وعرف أسباب تخلفه، من خلال الدراسة الميدانية لشعوبه، بعد أن ساح في أرجائه سياحة الدارس المتفحص البصير، الباحث عن المشكلات وأسبابها ونتائجها، ووسائل حلّها، فأنطق كلَّ عضو من أعضاء المؤتمر ـ الرواية، بعقلية قطره، فالنجدي يشكو من ضياع

الدين، والرومي يشكو من ضياع الحرّيّة، والإسكندري يشكو من ضعف الأخلاق، وهكذا. . فكتاب (أمّ القرى) كتاب أو رواية فيها إبداع وابتكار، وتظهر فيها شخصية الكواكبي واضحة جليّة، وهي شخصية الطبيب الناصح الأمين تجاه مريضه الذي يعالجه بوجدان مسلكيّ حيّ، يفحص داءه من كافة الجوانب، ثم يكتب له العلاج الذي يشفيه بإذن الله، إذا ما تناوله بدقة وإخلاص أيضاً.

قال عادل:

ـ هذا يعني أنّ الكتاب مهم جداً!.

وقلت أنا:

ـ وهذا يعني أنّ هذا الإجمال يُجْدي ولا يغني عن التفصيل.

فنظر الأستاذ خالد في ساعته، ثم قال:

ـ غلبتموني. . سنستولي على الحصة التالية من أستاذ الجغرافيا بعون الله.

فلم نملك أنفسنا من الهتاف والصياح بفرح، والسعادة تبدو على قسمات وجه الأستاذ خالد، الذي بادر إلى السبورة، وكتب: أم القرى. . مؤتمر العالم الإسلامي في مكة المكرمة. . ثم تناول كتاب أم القرى من محفظته، وأخذ يقلّب في صفحاته، ثم قال وهو ينظر في قصاصات موضوعة في تضاعيف الرواية:

ـ تحدث الكواكبي عن جمعية من المسلمين أو عن مؤتمر إسلامي، حسب تعبيرنا اليوم، عُقد في مكة المكرمة، حضره ممثل

أو أكثر لكل قطر إسلامي، فكان هناك عضو مكي وآخر مدني، ونجدي، وشامي، ومصري، وإسكندري، ورومي، وروسي، وتونسي وفاسي، وإنكليزي، وكردي، وتبريزي، وتتري، وقازاني، وصيني، وتركي، وأفغاني، وهندي، وسندي. . وكان رئيس المؤتمر هو العضو المكي، وأمين سرّه: السيد الفراتي، والسيد الفراتي هو نفسه الكواكبي، فهو مرة عبد الرحمن الكواكبي، ومرة: السيد الفراتي، ومرة الرحالة كاف. وهكذا. . أمّا زمان هذا المؤتمر، ففي الخامس عشر من ذي القعدة سنة ١٣١٦هـ أي قبل موسم الحج بأقلّ من شهر.

فقال عادل:

ـ إذن. . هذا الكتاب هو رواية حقيقية؟

أجاب الأستاذ خالد:

ـ يقول الكواكبي: إنّ لهذا المؤتمر ظلاًّ من حقيقة.

ـ ورأيك أنت يا أستاذ؟

ـ الكواكبي غير متَّهم، فإذا قال كلاماً صدّقناه.

وفتح الأستاذ كتاب أمّ القرى وقرأ:

ـ «قال الرئيس، يعني رئيس المؤتمر: إنّ أوضح عَرَضٍ من أعراض مرض المسلمين فتورُهم، وهو فتورٌ عامٌّ شامل لجميع المسلمين في جميع أقطار الأرض، لا يسلم منه إلاَّ أفرادٌ شذّاذ، حتى لا يكاد يوجد إقليمان متجاوران، أو ناحيتان في إقليم، أو قريتان في

ناحية، أو بيتان في قرية، أهل أحدهما مسلمون، وأهل الآخر غير مسلمين، إلاَّ والمسلمون أقلُّ من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً، وأقلُّ إتقاناً من نظرائهم في كلِّ فنٍّ وصنعة، مع أنّ المسلمين في جميع الحواضر متميزون عن غيرهم من جيرانهم في المزايا الخلقية، مثل الأمانة والشجاعة والسخاء ــ حتى توهّمَ كثير من الحكماء، أنّ الإسلام والنظام لا يجتمعان، فما هو السبب؟

قال الأستاذ خالد:

ــ ثم أخذوا يبحثون في الأسباب، وذهبوا في ذلك كلَّ مذهب، فالشامي رأىٰ أنَّ سبب الفتور يرجع إلى ما أصاب المسلمين من عقيدة جبرية؛ فهذه العقيدة في القضاء والقدر على هذا النحو، آلت إلى الزهد في الدنيا، والقناعة باليسير والكفاف من الرزق.

والمقدسيُّ رأى أنَّ السبب، تحوُّلُ نوع السياسة الإسلامية من ديموقراطية شورية إلى استبدادية ديكتاتورية، فأفسدت العقول، وأماتت الأخلاق.

ورأى التونسيّ السبب في ترف الأمراء والحكام والأعوان الذين لم يرعوا للأمّة حقوقها.

وقال الرومي المسلم: إنّ السبب الحقيقيَّ لفتور المسلمين وتخلّفهم يكمن في فقدانهم الحرية بجميع أنواعها: من حرية التعليم، وحرية الخطابة، وحرية البحث العلمي؛ فبفقد الحرية، تُفقد الآمال، وتبطل الأعمال، وتموت النفوس، وتختلّ القوانين، وتسأم الأمّة حياتها، فيستولي عليها الفتور.

ورأى التبريزي أنّ السبب تركُ المسلمين الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فاسترسل الأمراء في أهوائهم وشهواتهم، وعُدمت المراقبة عليهم.

وقال الفاسيّ: إنّ السبب هو إهمال الناس الاهتمام بالدين، حتى لم يبق له أثرٌ إلاّ على أطراف الألسن، وأمراؤهم مثلهم، لا يتراءون بالدين إلاّ بقصد تمكين سلطانهم على البسطاء من الأمة، هذا إلى جانب ظلمهم وجورهم، وقد كان المسلمون أعزّاء يوم توثقت بينهم الرابطة الدينية، فلما انحلت، ضاعت الأخلاق، ففتروا وخمدوا.

وأجاب المدنيُّ بأن السبب تدليس علماء السلطان وغلاة الصوفية.

وانضمَّ الرومي إلى هذا الرأي وقال: إنّ داءنا الدفين، دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين، والجهّال المتعمّمين.

وردّ الكرديُّ السبب إلى اقتصار المسلمين على العلوم الدينية، وإهمالهم العلوم الدنيوية، وأصبح المسلمون اليوم في أشدِّ الحاجة إليها في سائر أمورهم؛ من تربية الطفل، إلى سياسة الدولة، ومن عمل الإبرة، إلى عمل المدافع والبوارج، ومن استخدام اليد، إلى استخدام الأسلاك والبخار.

وقال الإسكندري: السبب كامنٌ في يأسنا ونومنا.

وقال التتري: إن السبب عندي، فقدانُ القادة والزعماء الحقيقيين.

وردّ الأفغانيّ السبب إلى الفقر.

وقال المسلم الإنكليزي: إنَّ سبب الفتور هو فقدُ الاجتماعات، والمفاوضات، وتبادل الآراء، فنسي المسلمون حكمة تشريع الجمعة والجماعات والحج، وصارت الخطب التي تُلقى تافهة لا قيمة لها، وكان الغرض منها التحدث في الأحوال الطارئة، وبلغ من سوء رأيهم أنّهم عدّوا التحدث في الأمور العامة فضولاً، والكلام فيها في المساجد لغواً، فلمّا انعدم الكلام في المصالح العامة، أصبح كلُّ شخص لا يهتمّ إلاَّ بنفسه، ولا اهتمام له بالصالح العام، ولا بغير ذلك من الشؤون، حتى لو بلغهم تخريب الكعبة ــ لا قدرّ الله ــ ما زادوا على أن يقطّبوا جبينهم لحظة، وينتهي الأمر.. والأمم الحيّة في الوقت الحاضر تهيىء الفرص للاجتماعات، ومبادلة الآراء ما أمكن، بكثرة النوادي والمجتمعات، وتنظيم الرحلات والسياحات، وكثرة الخطب والمحاضرات حتى في المتنزّهات، وعقد المؤتمرات للمناسبات، وتذكيرهم بتاريخهم وأهمّ أحداثهم، وبثّهم في الأغاني والأناشيد ما يبعث على حبّ البلاد والحرية، ويحمّس للخير العام.

ورأى الصيني السبب في تكبر الأمراء، وميلهم للعلماء المتملّقين المنافقين.

وقال النجدي: السبب كامنٌ في تضييع الدين الآمر بإعداد القوة بالعلم والمال والجهاد، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبإقامة الحدود، وإيتاء الزكاة إلى غير ذلك مما بيّنه المحاضرون.

وهنا أعلن الرئيس أنّ البحث في أعراض الداء وأسبابه قد نَضِجَ أو كاد، فيُكتَفىٰ فيه بهذا القدر، ويجب نقل البحث إلى موضوع آخر، وكلمة أخينا النجدي تلهمنا الموضوع الآتي الذي نبحثه، وهو: ما هو الإسلام الصحيح؟

قال عادل:

ـ لكي ترتاح قليلاً يا أستاذ، أحبُّ أن أقول:

ـ في ظني أنّ آراء هؤلاء جميعاً هي آراء المفكر العبقري عبد الرحمن الكواكبيّ، جاء بها على هذه الصيغة من الحوار، ليقنعنا بأنّ هذا المؤتمر هو مؤتمر حقيقيّ، لا خياليّ، ولكي يبث الروح والحركة في النص، فيدفع بهما الملل أو السأم الذي قد ينتابنا.

قال الأستاذ خالد:

ـ سمعتُ رأيك، واسترحتُ قليلاً.. والآن دعني أكمل ما بدأت، قبل أن نأكل حصة ثالثة..

وابتسم الأستاذ خالد، فابتسمنا، وسَرَتْ بيننا همهمة وهسهسة، ثم قال الأستاذ:

ـ بعد هذا، انتقل البحث إلى تحديد مفهوم (الإسلام الصحيح) وما دخل عليه من تغيير.

وقد أفاض النجدي في هذا، فصال وجال، وكان مما قال:

«إنّ الإيمان بالله أمرٌ فطريٌّ في البشر، وحاجتهم إلى الرسل لإرشادهم إلى كيفية الإيمان، ويختلف الناس في تصوّر الله، والعقول

البشرية مهما قويتْ واتّسعت، لا تتحمل إدراك صفات الله الأزليّة المجرّدة عن المادة والزمان والمكان، فاحتاجت إلى من يرشدها».

وأساس الإسلام جملتان: لا إله إلاَّ الله، ومحمد رسول الله، وثمرة الإيمان بالأولى: عتق العقول من الأسر، وثمرة الثانية، الاهتداء بمحمد في تعاليمه التي تحول بين المرء ونزوعه إلى الشرك.

ثم دعا رئيس المؤتمر، السيِّدَ الفراتي (يعني الكواكبي) الذي يقوم بمهمة أمين السر للمؤتمر، دعاه إلى تلخيص المحاضر السابقة للمؤتمر، وتعداد أسباب فتور المسلمين، وكلّفه أن يزيد عليها من الأسباب ما يراه مناسباً، فلخّص الكواكبيُّ أسباب فتور المسلمين في:

١ ــ أسباب دينية: أهمها عقيدة الجبر، ونشر ما يدعو إلى التزهيد في الدنيا، وترك السعي والعمل، واختلاف المسلمين، وتفرقهم إلى فرق وشيع وأحزاب متناحرة.

٢ ــ أسباب سياسية: وأهمُّها السياسة الخالية من الشعور بالمسؤولية، وحرمان الأمة من حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل، وفقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة، وميل الأمراء إلى العلماء المدلّسين، واعتبار التعليم صدقة يتصدق بها الأمراء على الخاصة، وتقريبهم للمتملقين، وإبعادهم للناصحين والأحرار.

٣ ــ وأسباب خلقية، من الاستغراق في الجهل، والارتياح إليه، واستيلاء اليأس على النفوس، والإخلاد إلى الخمول، وفساد

التعليم، وفساد النظام المالي، وإهمال طلب الحقوق العامّة جبناً، وتفضيل الوظائف على الصنائع، والابتعاد عن المداولات والحوار في الشؤون العامة.

وزاد أمين السر (الكواكبي) أشياء على ما سبق، أهمها: الغفلة عن تنظيم شؤون الحياة، وعدم توزيع الأعمال والمسؤوليات توزيعاً عادلاً، وعدم العناية بتعليم النساء وتهذيبهنّ، وقعود الهمّة، وانتشار داء التواكل.

ولم يكتف المؤتمر بالبحث في أمراض المسلمين وعلاجها، بل قرر إنشاء جمعية دائمة للعناية بشؤون المسلمين، وإصلاحهم، وتتألف هذه الجمعية من مئة عضو، يشرفون على تنفيذ برامجها في الإصلاح، واشترط في الأعضاء شروطاً دقيقة: من العفة، والأمانة، والإخلاص، وسعة العلم، والقدرة على التأثير، وجعلوا مركزها في مكة المكرمة، ولها فروع في سائر العواصم الإسلامية، وقرروا أن تكون الجمعية شعبية حرّة، لا تتبع لأيٍّ حكومة، وشعارها: (لا نعبد إلّا الله) ومن أهم أهدافها: تعميم التعليم بين المسلمين، والترغيب في العلوم والفنون النافعة، وإيجاد المدارس العالية، يتخصص كلٌّ منها في فرع من فروع العلم، وتوحيد أصول التعليم، ووضع مناهج للرقيّ بالأخلاق وتنفيذها، وإنشاء مجلة شهرية للجمعية لنشر مبادئها وأهدافها.

وانفضَّ المؤتمر بعد أن اجتمع اثني عشر اجتماعاً، وصل فيها إلى النتائج التالية:

١ ــ المسلمون في حالة فتور عام.

٢ ــ يجب تدارك هذا الفتور.

٣ ــ جرثومة الداء: الجهل.

٤ ــ الدواء: تنوير الأفكار بالتعليم، وإيقاظ الشوق للترقي، وخصوصاً في الناشئة.

٥ ــ تأسيس الجمعيات التي تقوم بهذا العلاج.

٦ ــ المكلَّفون بذلك، كل قادر على عمل. وخاصةً نجباءَ الأمة من السّراة والعلماء.

وأغلق الأستاذ خالد كتاب أم القرى الذي كان يقلب صفحاته، ويقرأ بعض ما علّق على هوامشه، كما جمع القصاصات التي كان يقرأ منها، ثم قال:

الكواكبي ــ يا أبنائي ــ أول من عمل للرابطة الشرقية، ونادى بالوحدة العربية، والتعاون الفعلي الإسلامي، بالاتحاد الكونفدرالي بين الدول الإسلامية، ودعا في كتابه هذا «أمّ القرى» إلى التجديد بالعودة إلى الإسلام الصحيح، أي إلى القرآن العظيم والسنَّة النبوية المطهّرة، ونبذ الاختلاف بين المذاهب.

قال عادل:

ــ الذي فهمته من كلامك يا أستاذ، هو أن كتاب «أم القرى» عبارة عن ضبط حوارات المؤتمرين، ومقررات المؤتمر، وأنّ هذا المؤتمر عُقد من أجل النهوض بالعالم الإسلامي، وأنّ أعضاء المؤتمر

يحسنون التحدث باللغة العربية، ولهذا استطاعوا أن يتفاهموا في وصف حالة العالم الإسلامي، وتشخيص أمراضه، ثم استطاع الكواكبي أن يبسط رأيه في إصلاح أحوال المسلمين، وجمع كلمتهم، بمذكرات سجلت ما دار في تلك الاجتماعات، ثم ختم المؤتمر بقانون لتأسيس جمعية إسلامية تعليمية.

وقلت أنا:

ـ كأنني فهمت، يا أستاذ، أنَّ الكواكبيَّ في كتابه «أمّ القرى» يدعو إلى خلافة عربية تكون الجزيرة العربية الممثلة في مكة المكرمة، مركزاً لها.

قال الأستاذ خالد:

ـ كلامكما سليم، واستنتاجاتكما صحيحة.. مع تعديل طفيف، هو أنَّ الكواكبي دعا إلى خلافة إسلامية، بقيادة عربية.. أيْ أنّ الخليفة عربي مسلم..

وسكت الأستاذ هنيهة ثم قال:

ـ والآن.. دعونا نختم حديثنا عن كتاب «أمّ القرى» وعن الكواكبي بشكل عام، قي قراءة هذه الفقرة من أمّ القرى، وفيها يظهر لنا أنّ الاستبداد السياسي كان هاجس الكواكبي، وشغله الشاغل في كيفية القضاء عليه، والتخلص منه.

قال الكواكبيُّ:

«إنّ التخلص من الاستبداد السياسي لا يأتي إلاّ عن طريق يقظة

لعقلية الأمّة، عن طريق الدين، ولكن تلك اليقظة لا تأتي إلاَّ بعد مضيّ مدّة من الزمن، قد تكون أطول من عمر الإنسان الواحد.. لذلك يجب ربط جهاد الآباء بالأبناء في الجهاد السياسي، عن طريق الجمعيات السياسية».

ثم يقول:

«إنّ الجمعيات المنتظمة، يتسنّى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلاً حتى يتحقق، وهذا هو سرُّ ما ورد في الأثر، أنّ (يد الله مع الجماعة) وهو سرُّ كون الجمعيات تقوم بالعظائم، وتأتي بالعجائب».

وتابع الأستاذ خالد يقول في نهاية الدرس:

ـ هذا النشاط الذهني، وهذه الآراء الجريئة ـ يا أبنائي ـ لم تَرُقْ للحكام الأتراك، فأرسلوا إليه مَنْ يَدُسُّ له السُّمَّ في كأس شاي كان يشربه مع ثلة من زملائه المفكّرين والسياسيين في إحدى القهوات في القاهرة، وقد قال لصديقه التاجر الحلبي الذي كان يشرب معه الشاي:

لقد سمُّوني يا عبد القادر.

ثم فارق الحياة بعد لحظات في بيته الذي كان يسكنه في القاهرة، وشيعّ جثمانه في اليوم التالي ودفن في القاهرة سنة ١٩٠٢ وكتبوا على قبره:

هذا قبر الشهيد عبد الرحمن الكواكبي..

ونظم شاعر النيل حافظ إبراهيم هذه الأبيات التي نقشوها فوق قبره:

هنا رجل الدنيا، هنا مهبط التقى هنا خير مظلوم، هنا خير كاتب
قفوا واقرؤوا أمَّ الكتابِ وسلِّموا عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

وتابع الأستاذ خالد كلامه قائلاً:

ـ وفيما كان جثمانه يُحْمَلُ إلى قبره في القاهرة، كانت الشرطة تداهم بيته في حلب، وقد فتشته تفتيشاً دقيقاً، وأخذوا أوراقه وكتبه المخطوطة وأعدموها..

واتخذ الأستاذ خالد سَمْتاً مَهِيْباً وقال:

ـ لمثل هذا فليعمل العاملون يا تلاميذي النجباء.

• • •

المصادر والمراجع

١ ــ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، للكواكبيّ.

٢ ــ أم القرى للكواكبي.

٣ ــ زعماء الإصلاح في العصر الحديث، د. أحمد أمين.

٤ ــ الحركة الفكرية في حلب، عائشة الدباغ.

٥ ــ الحرية السياسية في الإسلام، د. محمد أحمد الفنجري.

٦ ــ عبد الرحمن الكواكبي، د. محمد عمارة.

٧ ــ الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، منير شفيق.

٨ ــ جمال الدين الأفغاني، د. محسن عبد الحميد.

● ● ●